بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٦ - سورة قريش

مكية، وآيها أربع.

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ)

[٢] (إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ)

[٣] (فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ)

[٤] (ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ)

« لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ » قال ابن هشام: إيلاف قريش إلفهم الخروج إلى الشام فى تجارتهم. وكانت لهم خرجتان: خرجة فى الشتاء وخرجة فى الصيف. قال : أخبرنى أبو زيد الأنصارىّ أن العرب تقول : ألفت الشىء إلفا، وآلفته إيلافا، فى معنى واحد وأنشدنى لذى الرمة[1] :

من المُؤْلِفاتِ الرَّمْلَ إدماءُ حرةٌ ... شُعاعُ الضُّحَى فى لونها يَتَوَضَّحُ

والإيلاف أيضا أن يكون للإنسان ألف من الإبل أو البقر أو الغنم أو غير ذلك، ويقال آلف فلان إيلافا ، قال الكميت بن زيد[2] :

بِعامٍ يقــول له المُؤْلِفُو ... ن هذا المُعِيمُ لنا المُرْجِلُ

(١) استشهد به فى اللسان (ج ٩ ص ١٠) طبعة بيروت .

شعاع الضحى : بريق لونه . يتوضّح : يتبيّن .

(٢) العيم من العيمة ، وهى الشوق إلى اللبن . والمرجل : الذى تذهب إبله فيمشى على أرجله . يريد أن تلك السنة تجعل صاحب الألف من اللبن ، يعام إلى اللبن ويسعى ماشياً .

والمعيم العام الذى قل فيه اللبن . والإيلاف أيضا أن يصير القوم ألفا ؛ يقال آلف القوم إيلافا . قال الكميت :

وآل مُزَيْقِيَاءَ غداةَ لَاقَوْا بنى سعد بن ضَبَّةَ مُؤْلِفِينَا

والإيلاف أيضا أن يُؤلفَ الشيء إلى الشيء ، فيألفه ويلزمه . يقال : آلفته إياه إيلافا . والإيلاف أيضا أن تصيّر ما دون الألف ألفا . يقال : آلفته إيلافا . انتهى. ولورود الإيلاف بهذه المعانى، ظهر سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقه. مع مافى الإبهام، ثم التفسير من التفخيم والتقرير . روى ابن جرير[1] عن عكرمة قال: كانت قريش قد ألفوا بصرى واليمن، يختلفون إلى هذه فى الشتاء وإلى تلك فى الصيف . وعن ابن زيد قال : كانت لهم رحلتان : الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن فى التجارة. إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد. وكانت رحلتهم فى الشتاء إلى اليمن . وعن ابن عباس قال : كانوا يشتون بمكة ويصيّفون بالطائف . والأكثرون على الأول . واللام فى قوله (لإيلاف) متعلق بقوله تعالى : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ » أى فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء، لما فى الكلام من معنى الشرط . إذ المعنى، أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة. فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . والبيت هو الكعبة المشرفة « ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ » أى جوع شديد كانوا فيه قبل الرحلتين فـ (من) تعليلية. أى أنعم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم أو بدلية « وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ » أى مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال والأمور التى كانت العرب يخاف بعضها من بعض. قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضا . فأمنوا من ذلك لمكان الحرم وقرأ[2] (أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ) ونظيره أيضا قوله تعالى[3] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .
(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

تنبيه :

زعم بعض الناس أن اللام فى (لِإِيلَٰفِ) متعلق بما قبله أى فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . قال الشهاب : وعلى هـذا لابد من تأويله . والمعنى : أهلكهم ولم يسلط على أهل حرمه ليبقوا على ما كانوا عليه . أو أهلك من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترئ عليهم أحد ، فيتم لهم الأمن فى الإقامة والسفر ، أو هى لام العاقبة . انتهى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف . ولذا قال ابن جرير[1] فى رده : وأما القول الذى قاله من حكينا قوله أنه من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون (لِإِيلَٰفِ) بعض (أَلَمْ تَرَ) وأن لا تكون سورة منفصلة من (أَلَمْ تَرَ) وفى إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذى قاله من قال ذلك . ولو كان قوله (لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ) من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) لم تكن (أَلَمْ تَرَ) تامة حتى توصل بقوله (لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ) لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذى ذكر . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .